

في آفاق حافظ إبراهيم

بمناسبة ذكرى وفاته

للأستاذ حسين مهدي العنّام

(بية مانتر في العدد الماضي)

—•••••—

ومن أمثلة سخريته المستترة ما كان ينفسه وبين شوقي .
فقد وقف شوقي بين حافظ وبين القصر كالمريض الضخم ،
لا يستطيع حافظ أن ينفذ منه إلى صاحب القصر حتى يستطيع
أن يصيب بهض ما أصاب شوقي ، ولكن شوقياً لم يترك له
جوالاً ينفذ منه .

فقد حاول حافظ أن يتملن شوقياً ، بل قد عمقه زملاً ، فقال
في بعض شعره بمدح الخديوي :
لم أخش من أحد في الشعر يسبقني إلا فتى ماله في السبق إلاء
وفي قصيدة ثانية :

إلى سدة العباس وجهت مدحتي بهزيمة (شوقية) النسيج معطار
بومنها :

معان والفاظ كما شاء أحمد طوت جزل بشار ورقة مهيار
ويمل أحمد بك أمين في مقدمته لديوان حافظ هذا البيت
بقوله : الظاهر أنه يريد التنبئ بهذا البيت .

ولكنني أراه يقصد شوقياً ، كما قال فيما تقدم . والسخرية
في هذه الأبيات واضحة .

ومن سخريته بشوقي قوله بمدح الخديوي في قصيدة أخرى :
واليوم أنشدتم شعراً بعيدهم عهد النواصي أو أيام حسان
أزف فيه إلى العباس غائبة عقيمة الخدر من آيات عدنان
من الأوانس حلاها يراع فتى صافي القريحة صاح غير نشوان
ما ضاق أصغره عن مدح سيده ولا استمان بمدح الراج والبان
ولكنهما تصافيا وتصادقا بمد ...

والأمثلة على هذا كثيرة لا تكاد تحصى .

٤ - شاعر إنساني

من الأمثال المجيبة الدارجة في الطبقات المصرية البسيطة
قولهم : فلان هذا رجل إنسان ا
فتسأل : كيف ؟
فيقال : إنك لا تسأله شيئاً ورفضه مطلقاً . ثم هو دائم
الاهتمام بشيئه وبين هم أقل منه ا

وهذا الوصف الصادق السائر بين الطبقات المصرية البسيطة
ينطبق على حافظ إبراهيم في مجلته ، وإن ابتسم البعض لهذا
الوصف الرقيق ...

حافظ إبراهيم كان رجلاً (إنساناً) بكل معاني هذه الكلمة
ولم تقتصر (إنسانيته) أو عطفه على من هم أقل منه فقط ،
بل شملت من هم أكبر منه ، وشملت الأمم والشعوب المنكوبة جميعاً
وليست إنسانية حافظ في أنه كان دائم الإحسان على غيره ،
حتى ليجود بكل ما معه لعدم أو فقير ، ولو بقي جائعاً هو نفسه
وإنما إنسانيته في العطف على العالم المنكوب ، حتى لتراه
— مثلاً — يواسي أمة ويعطف عليها ويستدر عطف الغير على
هذه الأمة في نكبة ألت بها ، ولكنه يعود في اليوم الثاني
فيحمل عليها حملة شعواء لأنها جارت على أمة غيرها أضغف منها ،
كما ستري في قصائده عن إيطاليا بمد .

ومن المعروف أن حافظاً ذاق البؤس واليأس والجوع
والحرمان والتشرد ، فهذا مشهور في سيرته .

ولقد قال أحياناً في هذا المعنى في إحدى قصائده في حفة
رعاية الأطفال :

لم أقف موقفي لأنشد شعراً صب في قالب بديع النظام
إنما قت فيه والنفس نشوى من كؤوس المهوم والقلب داي
ذقت طعم الأسى وكابدت عيشاً درن شربى فذاه شرب الحمام
فتقلبت في الشقاء زماناً وتنقلت في الخطوب الجسام
ومنى المم نابقاً في فؤادي ومنى الحزن ناخرأ في مقلبي
فلهذا وقتت أستعطف الناس على اليائسين في كل عام
ولم تكن إنسانيته من نوع إنسانية أبي العلاء الممرى
الذي يقول :

تسرح كفك برغونا ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا

قضيت حياة ملؤها البر والنق فانت بأجر المتقين جدير
وسموك فيهم فيلسوفاً وأمسكوا وما أنت إلا عمن وُجبر
وما أنت إلا زاهد صاح سيحة برن سداها ساعة وبطير

حياة الوري حرب وانت تريدها سلاماً وأسباب الكفاح كثير
أبت سنة العمران إلا تناصراً وكدها ولو أن البقاء يسير
تحاول دفع الشر والشر واقع وتطلب محض الخير وهو عسير

الم ز أنى قت فبلك داعياً إلى الزهد لا بأوى إلى ظهير
أطاعوا (أبيقورا) و (سقراط) قبله

وخولت غيباً أرثنى وأشير
ومت ومامات مطامع طامع عليها ولا أتى القياد ضمير

أفاض كلانا في النصيحة جاهداً ومات كلانا والقلوب مسخور
هذه هي دعوته للحق وتحكيم الضمير والعمل للخير المطلق ،
بين الناس والأمم جميعاً ، لا فرق بين دين ودين ، كما قال في
حرب طرابلس ، مخاطباً البابا :

بارك المطران في أعمالهم فصلوه بارك القوم على ما
أبهذا جاء إنجيلهمو آمراً بلى على الأرض سلاماً
ثم أممه يقول في ززال مسينا ، بمد أن وصف نكبة
الطليان ، واستدر عليهم عطف العالم جميعاً .

وسلام على امرىء جاد بالدمع وثنى بالأصفر الزنان
ذاك حق الإنسان عند بنى الإنسان لم أدعكم إلى إحسان
فاكتبوا في سماء رجيو وسين وكالبريا بكل لسان
هاهدنا مصرع الصناعة والصوير والحذق والحجا والأغاني
إنه يستعطف بنى الإنسان من كل لون وجنس ولسان ،
وإن كان يقول إن هذا ليس إحساناً ، لأنه حق الإنسان عند
أخيه الإنسان ، وكأنما يثار حافظ للضعيف هنا ، ويتنصر
المطلوب ، حين تار الززال والبحر فأهلك مسينا وأهلها .

ولكنه في قصيدته عن حرب طرابلس ، يحمل على الطليان
حجة عنيفة شمواء ويسخر منهم سخراً صراً ، ويستمدى عليهم
العالم ، فما سبب ذلك ؟

فإنسانية أبي الملاء هنا إنسانية متطرفة ، هي أقرب إلى
السخرية والتهمك منها إلى الإنسانية ، فإنه هنا لا يفرق بين
الطيب والخبيث ، والنافع والضار ، وحسبه أن بمطفك على
الأضف منك ، رديتاً كان أم جيلاً ا

ولست هذه بالإنسانية العليا ...

أما إنسانية حافظ إبراهيم فإنسانية عليا .

إنه بمطفك على الموز والحجاج ، وبمطفك على المنكوب
والكلوم ، سوء كان ضميماً أم قوياً ، ولكنه إن بمطفك على
الظالم والخبيث .

على أن هذا لا يبنى أن أبا الملاء لم يكن شاعراً إنسانياً عالياً
في نواحيه الأخرى ، فأبو الملاء كان ولا شك شاعراً إنسانياً
عالي الإنسانية مرهتها ، وهو الذى لم يتزوج حتى لا يجنى على
أبنائه ، ثم قال : هذا جناه أبي على ، وما جنيت على أحد .

ويلقى حافظ إبراهيم وأبا الملاء في هذه الناحية ، وإن كان
تزوج الأيام لا تمدو الأربعين ، ثم انفصل عن زوجته ، ولكنه
يقول :

وددت لو طرحو بي يوم جثهمو

في مسرح الحوت أو في مسرح المطب
لمل (ماني) لاقى ما أكابده فود نمجلينا من عالم الشجب
حافظ إذن يلتقى مع أبي الملاء في ناحية ويخالفه في أخرى .
قال حافظ في إحدى قصائده في جمعية رعاية الأطفال :

قد مات والدها وماتت أمها ومضى الخمام بعمها والخال
وإلى هنا حبس الحياء لسانها وجرى البكاء بدمها المطال
فعلت ما تخفى الفتاة وإنما يمنو على أمثالها أمثالى
فهو يحس أن له رسالة إنسانية كبرى ، تمنو على الفقير
والضعيف والريض .

ويقول في رثائه تولستوى :

ولست أبالي حين أبكيك للورى حوتك جتان أم حراك سمير
فإني أحب النابيين املهم وأعشق روض الفكر وهونضير
دهوت إلى عيسى فضجت كئناس

وهز لها عرش وماد سرير

سببه إنسانيته أيضاً ، وانتصاره للضعيف المغلوب .
ومن هذا أيضاً شعره الرثائي ، فشمع الرثاء في ذاته من أعلى
ضروب الشعر الإنساني !

وغير هذا كثير . وهذه أعلى مراحل الإنسانية .

٥ - شعر حافظ

من الأقوال المأثورة عن الأملوب قول سانت بييف ، على
ما أذكر ، ما معناه : إن الأسلوب يعبر عن صاحبه .
أى إنه يعبر عن روحه .

واقدم امتاز شعر حافظ بأنه يعبر عن شخصيته ، أى روحه ،
تعبيراً قوياً ...

والمعروف عن حافظ أنه كان شديد المرح في حياته الخاصة ،
مع أن شعره وأدبه ، في مجومه ، كان شعراً وأدباً رزينين جادين
فتكيف توفيق إذن بين ذلك الرأي وهذه الحقيقة ؟

وهل كان حافظ ذا شخصيتين مزدوجتين كما قال أحد الكتاب
كلا ...

فإن نفسه الحزينة - التي عرفت الحياة جيداً - سخرت
منها سخرية هائلة فأصبحت كما قال المتنبي تنكسر نصالها على نصاله
والنكسة التي اشتهر بها حافظ كانت سترآ لآلامه وأحزانه
وإمعاناً في السخرية من الحياة .

ولهذا برز حافظ في ناحيتين من شعره :

الوطنية والرثاء

ويمثل حافظ نفسه هذا بقوله ، عن شعره الرثائي ، في
قصيدة نحية الشام :

إني مللت وقوفي كل آونة أبكي وأنظم أحزاننا بأحزان
إذا تصفحت ديواني لتقرأني وجدت شعر الرائي نصف ديواني

وهناك ناحية فنية نحب أن نقرر أن حافظاً كان من أوائل
السباقيين إلى طردها والتجلية فيها .

تلك هي الناحية القصصية في شعره .

وإذا كان حافظ لم يسرد قصصاً في شعره بالمعنى القصصي
الفهوم ، إلا أنه نظم قصائد اجتماعية وطنية نحا فيها نحو القصة

بلغ بها الغاية مما أراد ...

وإذا لم تكن القصيدة التي سماها المنظومة التمثيلية في ضرب
الأسطول الطلياني لمدينة بيروت - قصة بالمعنى المؤلف ، إلا أن
له قصائد فيها قصص ساحر بليغ ، مثل قصائده في رعاية الأطفال
وحرب اليابان ، ومراثيه ا

ويجمل بنا هنا أن نقف قليلاً نناقش رأى أحمد بك أمين
في شاعرية حافظ ، في مقدمته لديوانه :

« وقد سلم اشاعرنا من هذه الأمور ثلاثة ، قوة العاطفة ،
وحسن الصياغة ، وجمال الموسيقى . وأعوزه أمر منها وهو
قوة الخيال .

« فأما عاطفته فتقوية فياضة ، وأكبر مظهر لقوتها إنارة
نفس السامع والقارئ ، فما يسمع شعره سامع ، ولا يقرؤه قارئ .
الإثبات نفسه ، وهاجت مشاعره ، وعواطفه صحيحة لا مريضة
والمعاطفة الصحيحة هي التي تدعو لأن تكون حياتنا أسعد
وأقوى الخ ...

« وأما خياله فكان مع الأسف - خيالاً قريباً - قتل
حظه من الابتكار ، وقلل حظه من التصوير ، قصر خياله عن
أن يفوس في باطن الشيء ، فيصل إلى مكان الحياة منه ، ثم يخرج به
إلى الناس كما يشعر به ، وقصر عن أن يخلق في السماء فيصور
منظراً عاماً يجذب النفوس إليه »

ثم ضرب مثلاً قصيدته في مدح البارودي وقصته في ضرب
الأسطول الطلياني لمدينة بيروت .

إن حكم الأستاذ أحمد أمين على عاطفة حافظ وحسن صياغته
وجمال موسيقاه حكم صحيح :

ولكن حكمه على خيال حافظ ، حكم مرئجل يحتاج إلى (تنقيح)
وهو أشبه بالرأي الفطير ، لا يقبل صدوره من رجل كالأستاذ
أحمد أمين :

لقد قلنا عن قصيدته في ضرب الأسطول الطلياني لمدينة بيروت
أنها ليست في مستوى شعر حافظ ، مع أن لها ما يبروها ، ولكن
لا يصح أن نأخذها مقياساً لشعره وسندنا نحكم بمقتضاه لحافظ
أو عليه .

وإذا كان أحمد بك يقصد من الخيال القصة بمنهاها الصحيح

فليست كل القصص خيالا ، وإن كان حافظ نحا نحواً قصصياً في بعض قصائده كما قدمنا .

ورب بيت واحد من الشعر فيه من الخيال أروع قصة إذ إذا تركنا هذه (القربنة) التي اتخذها أحمد بك أمين سفدا لإدانة شاعرية حافظ بالقصور والضجولة ، وفتحنا ديوانه لنقرأ أي قصيدة فيه ، راعنا منه خطرات موهلة في الخيال اليميد ، ولناخذ مثلاً باب (الوصف) من ديوانه ، كما قسمه أحمد بك أمين نفسه .

فاقرأ له وصف كساء ، حيث قال صريحاً :

لي كساء أنم به من كساء أنا فيه أتبه مثل الكسائي
حاكه المر من خيوط المعالي وسقاء النسيم ماء المصفاة
وقصائده في الشمس ، والسيف ، والدفع ، وليلة عيد
الجلوس ، وززال مسيناً ، إذ قال :

خسفت ، ثم أغرقت ، ثم بادت قضى الأمر كله في نواني
واقراً قوله :

إذا سرت يوماً حذر النمل بضه مخافة جيش من مواليك بنشاه
أو حتى قوله الفحش في الهجاء ، والذي لم يتيهه أحمد بك في
ديوان حافظ :

أخس من دب على ظهرها ودبت الناس على ظهره ا
بل افتتح ديوانه واقراً ما يقع عليه نظرك وتمعن فيه ، سواء
كان سياسياً أم اجتماعياً أم رثاء أم في أي غرض آخر ...

فلعل الخيال الذي يقصده أحمد بك أمين إذن هو التفتي بجمال
الطبيعة . أو النزول ، وهما الضريان من ضروب الشعر اللذان
تخلف فيهما حافظ ، لأنه منصرفاً إلى ناحيتين أساسيتين في شعره ،
هما شعره السياسي ، وشعره الإنساني النزعة .

على أن التفتي بجمال الطبيعة في حد ذاته ليس خيالاً كله !
وناحية أخرى في شعر حافظ .

تلك هي براعته في اختيار اللفظ ، وفي تحديد المعنى الذي
يريد ، وفي التصوير .

ومن أقرب الأمثلة على ذلك قوله إلى روزقلت ، التي لم نذكر
في ديوانه أيضاً :

إنما شوقها لقولك يا روزقلت شوق الأسير للتحرير فما هي
أعلى مراحل الشوق عامة ؟

إن أملاها هي بلوغ الشتاق ما يريد .

ولقد حدد حافظ مراحل الشوق وأهدافه في هذا الموضع —

بكل هذه البساطة ، فهو شوق الأسير للتحرير ، والمصريون
يشاقون لسباع قول روزقلت حتى يدافع عن حرية هذا الشعب ،
الذي شبهه بالشعب الأمريكي ، أيام احتلال الإنجليز له !
وهذا أبلغ ما يمكن أن يقال في مثل هذا الموضع .

ومثل قوله عن الإنجليز وسعد :

النسر بطمع أن يصيد بأرضنا سنزبه كيف يصيده زغلول

٦ — حافظ الطائب :

عرف حافظ كاتباً أيضاً ، وقد انتم نثره بالبلاغة والمحسنات

اللفظية والبديع ، ولكن نثره لم يكن في مستوى شعره .

ولقد ترجم بعضاً من البؤساء لكتور هيجو ، عنى فيه
بالأسلوب ، فتكاف ، ولكنه أحدث بهذا الكتاب أثراً محموداً
في الصحف وفي الترجمة على الأخص ، أذوجه إليها أنظار الكتاب
الذين يعرفون لذات أجنبية .

وألف كتاب ليالي سطيج ، وهو أحسن كتبه النثرية ،

وقد عنى فيه بالأسلوب أيضاً ، ولكنه حمل فيه حملة اجتماعية

وفكرية ووطنية ، لعلها أحدثت بعض الأثر المطلوب في إبانها ا

وله كتاب في الاقتصاد السياسي ، بالاشتراك مع آخر .

وكتاب في الأخلاق .

وإذا كان نثر حافظ ، كما تقدم ، في مستوى أقل من شعره

إلا أن فيه ما يجب أن يسان كثرات لشاعر عظيم فقدناه ،

وكاتب مجاهد يجب أن تخلد جميع آثاره ، فتبقى أثراً حياً بيننا ،

وإن كان مثله لا يمكن أن ينسى ، فسكها مرعام أحست مصر

وشقيقاتها العربية صرارة فقهه ، بحاجتها الملحة إليه ، فهو كما قال

حافظ نفسه في صديقه شهيرين :

مضيت ونحن أحوج ما نكون إليك فقل خطبك لا يهون

هذه بحالة من آفاق شاعرنا حافظ إبراهيم .

وسنعود إليه في مناسبات أخرى ، لنوفيه حقه من الدراسات

محمد مهدي الفخام